إلى أرض النبـــوة !

[وصف وتأريخ لرحلة الوفد السوري إلى الحجاز
ربيع ١٩٣٥ لفتح طريق الحج البري للسيارات]

للأســـتاذ علي الطنطاوي

— ٢ —

تركنا الموكب ، وقد وقف في ظاهر دمشق ، حول قبة (المسالى) ، وقد ملأت وفود المودعين تلك الساحة على رحبها ، وقام الخطباء يخطبون ، وقمت أشكرهم باسم الراحلين وأودعهم ، وأشرح الغرض من هذه الرحلة . وكانت الشمس قد جنحت إلى المغيب ، فزاد شحوبها الموقف رهبة وجلالاً ، وأقبل الناس علينا يودعوننا ؛ فلم تكن ترى إلا عناقاً أو تقبيلاً وإخلاصاً متجلياً ، وحباً وعطفاً ، فلم يبق في الناس من لم تسل عبراته ...

وإن أنس لا أنس مشهد حفيد لوكي آغا سكر من وجوه الميدانيين ، ورفيقنا في سفرنا ، وقد تعلق به لا يريد فراقه ، ويبكي فيبكينا ؛ فما كان أبلغ من بكاء الطفل الحفيد ، إلا بكاء الجد الشيخ ، وما تركه حتى انتزعوه منه انتزاعاً ، وإن صوته ليرن في آذاننا ينادي : جدي جدي

وغادرنا دمشق ، وكان الليل قد أسدل ستائره على الكون ، وما زلنا ننأى عن هذه الجموع الهاتفة لنا ، الداعية بالتوفيق والنجاح ، ونبتعد عن هذا الحشد ، حتى انقطع صوته الليل وطواه سكونه ، وغاب سواد الجمع في سواده الشامل ، ولم يبق من حولنا إلا السهول الفسيح ...

وكان صمت بليغ ، فلم ينبس واحد منا ، واستسلمنا جميعاً إلى عواطفنا وأحلامنا ، وقد هاجها موقف الوداع ، وأثارها هذا المستقبل المجهول الذي نقدم عليه ، وهذه الصحراء المرعبة التي نسعى إليها ، وهذه البقاع المقدسة التي نقصدها . وكنا نتلفت بين الفينة والفينة ، فنملأ العين بمرأى أضواء (المهاجرين)[1] ، وهي تسطع على نفوسنا المظلمة ، كما تسطع النجوم الهادية في الليلة الداجية ، على الضال الحائر ؛ ولم يكن ندري ، أنعود إليها فنراها كرة أخرى ، أم ستأكلنا الصحراء فيكون ذلك آخر العهد بها ؟ وكنا نحدق فيها لننقش صورتها في نفوسنا ، حتى نأنس بها في ليالي البعاد ، ونذكر فيها آخر آية من آيات دمشق (البلد الحبيب)

وكانت السيارات تسير متعاقبة يكاد ينوء بها ثقل ما تحمل[1] وكانت تحمل فوق طعامنا والشراب الفرش والخيام ، والقدور والطباق ، ومائتي (صفحة) بنزين ، وعدداً هائلاً من آلات السيارة وأدواتها ، وراديو (رادّ) وغير ذلك مما نسيته الآن ، فكنا نعوّذها بالله ، ونرجو لها التوفيق ، وليس فينا من يتحدث أو يتكلم إلا قائلاً كلمة ، وسامعاً جواباً . ثم يرجع الصمت حتى طلعت علينا أضواء أذرعات (درعا) قصبة حوران ...

* * *

بلغنا أذرعات (درعا) عقب العشاء . فلبثنا فيها ريثما نظروا في جواز سفرنا وريثما صلينا . وأذرعات اليوم بليدة جميلة ذات قسمين — قسم جديد منظم بني على المحطة ، وقسم قديم ينأى عنه قليلاً — وفيها سوق كبيرة ، وأبنية جيدة ، وهي قصبة ذكرتها العرب في أشعارها لأنها — كما قال ياقوت — لم تزل من بلادها في الإسلام وقبله ، وأنشد لبعض الأعراب :

ألا أيها البرق الذي بات يرتقي ... ويجلو دجى الظلماء ذكرتني نجدا
وهيجتني من أذرعات وما أرى ... بنجد على ذي حاجة مدنف بعدا

وذكرها امرؤ القيس ، وعد ياقوت جماعة من العلماء خرجوا منها ، وليس فيها الآن من العلماء أحد (فيما نعلم) يذكر . وعالم حوران وفقيهها اليوم الشيخ التقي الصالح الشيخ الطيبي الدمشقي وهو فوق التسعين ، وهو بقية السلف الصالح — وفارقنا أذرعات نسير شرقاً إلى بصرى بعد ما هتفنا[2] بآل المقداد أعيان وجوهها ننبئهم بوصولنا ، فلم نبلغ نصف الطريق إلى بصرى حتى رأينا أضواء كثيرة ومصابيح تجيء وتروح . فعجبنا أن يكون في البرية مثلها ، ودنونا منها فإذا هي أضواء المستقبلين الكرام ، هجروا مضاجعهم وأقبلوا يتلقوننا من نصف الطريق . فحيونا ومشوا بين أيدينا يهزجون الأهازيج البدوية حتى بلغنا بصرى

(١) الحي الدمشقي الذي يقوم على سفح قاسيون وفيه « الجادة الخامسة » ذات الجلال والجمال

(١) هذا هو التعبير الصحيح وإن كان عكسه هو الشائع

(٢) أي تكلمنا بالتلفون واسمه في الشام الهاتف ، وهو اسم معروف عند الخاصة والعامة

ولبصرى ذكر فى التاريخ مستفيض ، ومجد مؤثل ، وفيها كثير من آثار الماضى ، ولم أكن قد دخلتها من قبل ، فما استطعت رؤيتها فى الظلام ، ولم ألمح من آثارها إلا صفين من الأعمدة الضخمة ، قائمين عند مدخل البلد ، على طرف الطريق الذى سلكناه إلى منزل آل المقداد حيث رأينا الكرم الذى لا كرم بعده

وبصرى مذكورة فى الشعر قديماً وحديثاً ، ولكنهم لم يذكروها إلا ليذكروا نجداً ، ويعلنوا شوقهم إليها ، وكأنهم لم يروا فيها ولا فى الغوطة ولا وادى بردى ما ينسيهم تلال نجد ورماله ، وذلك من حكمة الله فإنه لولا حب الوطن ما سكن البلد القفار ! فمن قولهم فيها :

أيا رفقة من آل بصرى تحملوا ... رسالتنا لقيت من رفقة رشدا
إذا ما وسلتم سالمين فبلغوا ... تحية من قد ظن ألا يرى نجدا
وقولا له ليس الضلال أجازنا ... ولكننا جزنا لنلقاكم عمدا

ولبثنا فيها إلى موهن من الليل[1] ثم خرجنا بصحبتنا دليل من أهلها ليسير بنا إلى (قريات الملح) القرية التابعة لابن سعود من غير أن نمر على المخفر الانكليزى فى (الأزرق) لأننا لم نستأذن من القنصل الإنكليزى لنمر على بلد من بلادنا ... وكان اسم الدليل الحاج نمر ، وقد زعموه خبيراً بالطرقات ، عارفاً بالأرض ، خريتاً حاذقاً .. فتوكلنا على الله ، ثم على هذا الدليل الحاذق !

* * *

سرنا إلى الجنوب ، نخبط فى ظلام الليل ، لا نتبع جادة مسلوكة ، ولا طريقاً واضحاً ، يقودنا الحاج نمر . وياليت اسمه الحاج غراب ، فقد أضلنا ، كما (قد ضل من كانت الغربان تهديه) ... حتى بلغنا قرية كبيرة اسمها (أم الجمال) فيها بنيان كثير ، وأزقة وطرقات ، وفيها برج عال قديم ، ولكنها مهجورة منذ قرون ... ليس فيها ديّار ولا نافخ نار ، وهى موحشة فى رأد الضحى فكيف بها فى الليلة الظلماء ؟ فما كان من صاحبنا الحاج غراب إلا أن دير به وغثت نفسه وجعل من الدوار والغثيان يبقىء وفقد رشده ، فصبرنا عليه حتى أفاق فسألناه عن أمره ، فإذا هو لم يركب فى عمره سيارة قط ولذلك دار رأسه ، فعالجناه حتى برئ ، فلما برئ رأى الطريق مختلطاً عليه ، فأمرنا بالوقوف فى هذه البليدة الموحشة التى لا يسكنها إلا الجن ... وذهب فى سيارة يكشف لنا الطريق ، فانتظرناه إلى الفجر فلم يرجع ، وكانت ليلة ما أذكر أنى رأيت مثلها برداً ، ونحن فى العراء فأحسست والله كأن عظامى ترتجف من البرد ، وبلغ منا النعاس وما نطيق أن ننام ، وأين وكيف ننام ؟

فلما طلع النهار ، وتعارفت الوجوه ، رأينا الحاج غراب على بعد خمسين متراً منا ، وإذا المحترم ينتظر أن نأتى إليه ...

وأردناه على الإسراع قبل أن يبصرنا بعض أعوان المستر كاوب ، ملك البادية المسمى (أبو حنيك) لأن رصاصة كانت قد أصابت حنكه فتركت فيه أثراً . وسألناه ، هل يعرف الطريق أم يخبط بنا خبط أعشى ، فعجب من سؤالنا وأكد لنا أنه يعرف البلاد كلها شبراً شبراً ، وأنه سلك هذه الطرق بعدد شعر رأسه ، فاطمأننا وسرنا معه ، وكانت الشمس قد طلعت ، وانقضت أول ليلة من ليالى الرحلة

فاطمأننا وسرنا معه ، فصعد بنا جبلاً وعراً فيه أحجار وحفر ، فسرنا فيه ساعة كاملة وهو لا يزداد إلا وعورة . فقلنا له : ويحك يا هذا ، إلى أين تمشى بنا ؟ قال : إن علينا أن نجاوز هذه الوعرة ، كى نبلغ قريات الملح من غير طريق الأزرق فقلت له : ويحك ، هذا والله البلاء الأزرق والموت الأحمر . وإنه ليوشك إذا أوغلنا فى هذه الوعور ألا نخرج منها ، فعد بنا ولو إلى الأزرق ، فماذا فى الأزرق إلا الجزاء النقدى ؟

واختلفت الآراء وتجادل القوم ، ثم اتفقوا على العودة ، فعاد بنا الدليل من حيث جاء ، حتى إذا هبطنا الجبل سار بنا فى طريق معبدة فسرنا فيها ، ثم سرنا وهى لا تنتهى حتى كاد النهار يزول ، ثم وجدنا مركزاً من مراكز البترول فيه ضابط انكليزى ، فسألناه : إلى أين تؤدى هذه الطريق ؟ قال : إلى العراق ، وقد اقتربتم من الحدود

فوثب أصحابنا على الدليل يوسعونه سباً وشتماً على أن طوّح بهم حتى كاد يهلكهم بجهله ، وهو ساكت لا ينطق بحرف ، فتركه القوم وائتمروا بينهم فقال قائل منهم : إنى لأعرف طريقاً فى الحرة يصل بنا إلى القريات ، وقد جزته فوجدته سهلاً . فقالوا له : سر بنا إليه ، فمال بهم ذات اليمين ، ثم دار دورة فإذا نحن فى حرة من أصعب الحرار واسمه ممتدة الجوانب ملتوية مفروشة بحجارة سوداء لماعة ، كأنما قد صبّ عليها الزيت ، حادة الجوانب كأنها السكاكين ، فلما بلغنا وسط الحرة رأينا

(١) منتصف الليل